الجميل لم تكن له اهتمامات سياسية فقد كان له اهتمامات اخلاقية في معارضته للعنف وسفك الدماء . ورغم انه عاش في البلاط منذ بضع سنوات إلا انه كان حريصا دائماً على ألا يتسخ بالدم . فلم يسارع قط كما فعل غيره لارتكاب بعض الجرائم تلبية لرغبات القيصر السرية . وكانت تلك مهارة كبرى أن يتجنب العنف مع الاحتفاظ بالحظوة والتكريم .

كان بوريس غودونوف يوصي بالاعتدال والحيلة . وفي خلال الخريف وطول الشتاء قام إيڤان يداور البولونيين والليتوانيين بمعسول الكلام . ولم تسجل سياسته الداخلية شيئاً من حوادث الجريمة والعنف . وقد أرسل الجيش الى الشمال الغربي ضد السويد . وكان ماغنوس دوق هولشتاين (*) قد بدأ يتحرك ليستولي على مملكة لنفسه فوعده إيڤان بليڤونيا . ولا بد أن بوريس غودونوف قد شبع ضحكاً وتهكماً على ماغنوس لأنه كان يعرف جيداً أن سيده لا يمكن أن يعطي ليڤونيا لأمير دانمركي . ثم عاد القيصر الى نوڤغورود ، ومن هناك بلغ الجبهة الإستونية حيث باشر الحرب بهمجية كبيرة واخذت المدن تسقط بين يديه او بين يدي ماغنوس واحدة بعد أخرى حتى استولت الجيوش على البلاد واجتاحتها قاتلة الرجال ومغتصبة النساء . وفي هذه الحملة قتل سكوراتوف محظي القيصر . وكان ماليوتاسكوراتوف خليل العربدة والإجرام قد نجا من تقلبات مزاج القيصر وبقي نديمه الصخاب الفاسق رغم مما احتله غودونوف من مكانة ورفعة . وعندما علم إيڤان بنبأ مقتله في المعركة انتابه غضب شديد فاخذ يكدس الأسرى من السويديين والألمان وهم مكبلون بالأغلال ويغطيهم بحزم من الحطب ثم يضع فيها النار حتى يحترق هؤلاء التعساء وهم أحياء للتدليل على ما انتابه من غضب وغم .

(*) هولشتاين أمارة تقع الى الجنوب من الدانمرك . — المترجم